مرونة دمشق

أشهد في دمشق أمراً عجيباً ولست أدري هل أشهد مثله في بلد آخر، فقد شرعت في مخالطة الناس بعد الحرب الكبرى الأولى فجالست من جالست وعاشرت من عاشرت. والذي شهدته من أوّل حياتي أنّه إذا عاش في دمشق رجل من لبنان أو فلسطين أو مصر أو الحجاز أو العراق أو من أي بلد آخر فإنه لا يغيِّر في حديثه لهجة بلده؛ فإذا كان من لبنان كانت لهجته اللبنانية. وكذلك إذا كان من الحجاز أو العراق أو من أي بلد آخر، فقد يقيم القادم على دمشق من بلدان غير الشام سنين طويلة تبلغ عشرين سنة أو ثلاثين سنة فأراه بعد هذه الإقامة الطويلة كأنه لا يزال يقيم ببلدة بين ظهراني قومه يخاطبهم بلهجته فلا يتغير شيء من هذه اللهجة. وقد كانت لي صلة صداقة بجماعة من رجال الصحافة بعضهم من بيروت وبعضهم من يافا، وكانت لي صلة برجال آخرين من مصر أو بغداد، فكنت إذا جالستهم بعد إقامتهم بدمشق عشرين سنة أو أكثر وكنت إذا حدَّثتهم أو حدثوني فلا أراهم ينحرفون في أحاديثهم عن لهجة بلدهم. فلم تؤثر في شيء من لهجتهم إقامتهم بدمشق زمناً طويلاً.

وعلى عكس هذا الأمر ما أراه من أهل دمشق، فإذا غادروا بلدهم إلى بلد آخر مثل لبنان أو مصر أو الحجاز أو العراق أو غيرها من البلدان فإنهم لا تكاد أقدامهم تطأ تلك البلاد، ولا تكاد آذانهم تسمع

لهجات أهلها حتى يأخذوا بتقليد هذه اللهجات، فتراهم يعدلون عن لهجتهم الدمشقية ويميلون إلى لهجة البلد الذي أقاموا به، فإذا كانوا في مصر قلّدوا أهل مصر في لهجتهم، وإذا كانوا في العراق تشبهوا بأهل العراق في لهجتهم على صعوبة هذه اللهجة، حتى إني كنت في بعض سفراتي إلى مصر أضطر إلى مجاراة أهلها في لهجتهم على الرغم من استغرابي لهذا الأمر. وكنت إذا حاولت المحافظة على لهجتي الدمشقية أحافظ عليها مرة وأعجز عن هذه المحافظة مرة.

وأعرف صديقاً من أصدقائي رحل مرّة إلى الحجاز وأقام بين السعوديين زمناً غير طويل ثم عاد إلى دمشق يلبس لباس السعوديين ويقلّد لهجتهم في أحاديثه، ويكرر بعض عباراتهم المألوفة، حتى كان إخوانه يتنادرون به، إلا أنه ما لبث أن طرح اللباس السعودي وتخلّى عن لهجة أهل نجد وعاد إلى لهجته الحمصية رحمه الله أوسع الرحمات.

لقد شهدت دمشق من أول تاريخها حتى عصرنا هذا كثيراً من الفاتحين والغزاة الذين مرّوا بها، واستولى عليها كثير من الملوك والولاة فكان أهلها مضطرين إلى مسايرة أولئك الفاتحين والغزاة حرصاً على أمور دنياهم، فخلقت فيهم هذه المسايرة نوعاً من المرونة جعلتهم يتخلون في بعض الأحيان عن خصائصهم ويأخذون بخصائص من هجم عليهم من الفاتحين والغزاة. ومن هذه الخصائص تقليد اللهجات سواء أكانت سهلة أم كانت صعبة، حتى كاد هذا التقليد أن يكون فيهم على ترادف السنين ابن الطبع.

على أن هذه المرونة على المسايرة لا تتعدّى تقليد اللهجات أو اللباس أو نحو ذلك، فإنهم إذا اضطروا إلى الانتفاض على الغزاة

والفاتحين والملوك والولاة انتفضوا، وإذا أُلْجِئوا إلى الثورة ثاروا، فهم قد جمعوا بين المرونة وضدها، فما أسرعهم إلى الانتفاض والثورة!.

على أنه قد شهدت بلاد ثانية مثل الذي شهدته دمشق في ماضي أحقابها. لقد شهدت مصر مثلنا كثيراً من الغزاة والفاتحين فلم يعمد أهلها لتغيير لهجتهم في أحاديثهم من باب المسايرة مثل الذي فعله أهل دمشق فهل معنى هذا أنهم أقلّ مرونة؟ هل معنى هذا أن أهل دمشق قد اختصهم الله تعالى بهذه المرونة دون غيرهم؟.

هذا أمر شهدته في خمسين سنة من أول حياتي العامة، وقد حاولت أن أجد له سبباً من الأسباب أو علّةً من العلل فلم أجد إلا ما ذكرته من ميل أهل دمشق إلى المسايرة ولو حيناً من الدهر. وقد أكون مخطئاً في تقديري أو قد أكون مصيباً، وعلى كل لا أجزم ولكني أخمِّن تخميناً وأشعر بأنه قد أدركتني الحيرة في الاهتداء إلى حقائق الأسباب والعلل فأكتفي بتدوين هذا الأمر الذي خطر على البال في هذه المسألة غير قادر على الزيادة في الإيضاح، فلست من علماء هذا الباب في وجه من الوجوه، فإذا عنَّ لي أمرٌ في هذا الموضوع فلا أقطع به.

مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق ١٩٨٠

التعريف والنقد
حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام

من جلائل الموضوعات موضوع اللغة ، والسبب في جلالة هذا الموضوع منزلة اللغة في الأمم ، فاللغة إنما هي صورة الأمة وتاريخها وحضارتها ، فإذا اغتبطنا بظهور كتاب يتصل باللغة على اختلاف أبوابها فغبطتنا في محلها ، وإذا ألمنا من استعمال الحرية في التصرف في أمور اللغة بحسب مشيئة المتصرفين وهواهم فلنا الحق في هذا الألم، فقد يقع نظرنا في هذه الأيام على بعض الانحراف عن الذوق في الأساليب أو على إخلال بالموسيقى في بعض التراكيب، أو على توليد ألفاظ ما نظن أن بنا حاجة إلى توليدها ، فلا يمر بنا يوم دون أن نسمع في دور الإذاعة، أو نقرأ في الصحف ألفاظاً حديثة مثل: جدولة الديون. أو عسكرة القضية، أو ما شابه ذلك، فقد أصبح لكل واحد منا حرية في اختراع اللفظة التي يراها مناسبة للإعراب عن فكرته، فإذا كان الأمر على هذا الوجه فلا ندري كيف تكون اللغة بعد قليل من الزمن.

فقد أشار بعض علماء اللغة في الغرب إلى أن الأحفاد في طائفة من قبائل إفريقية لا يفهمون لغة الأجداد لكثرة ما يولد من الألفاظ من حين إلى آخر.

أمّا أن يولد العصر ألفاظاً تشتد إليها الحاجة في أبواب العلم والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك ويتم الاصطلاح عليها ويشيع استعمالها من دون البعد عن مقاييس اللغة وجوهرها فهذا أمر يخفّ الاعتراض عليه، وأما أن يخترع كل واحد منا لفظاً لما يعن له من الأفكار فقد تصبح اللغة فوضى ويصيبنا ما أصاب الأحفاد في قبائل افريقية. إنّا نحرص على وحدة اللغة ونظامها حتى لا تصبح فوضى. ولست أدري أيكون هذا الرأي رأي علماء اللغة في عصرنا .

يجدر بي بعد الإفصاح عن هذه الفكرة الوجيزة أن أشير إلى كتاب: "حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام" للدكتورة نشأة ظبيان، فقد تضمن الكتاب مقدمة وفصولاً وأبواباً ، وأما المقدمة فلا سبيل إلى تلخيصها، وحسبي التنويه بما اشتملت عليه من أفكار سديدة في منزلة اللغة في الأمم، وإني لأكتفي بذكر السطر الأول من المقدمة لنعرف كيف تنظر المؤلفة إلى اللغة ، فقد قالت: "الأمة لغتها، اللغة وعاء فكر الأمة ونبض فاعليتها، ففي حياة اللغة بقاء الأمة وفي خمولها موتها وتواريها". وقد أفاضت الدكتورة نشأة في مقدمتها في هذا المعنى على قدر ما يستحق من الإفاضة والعناية، واستشهدت بأمور كثيرة للدلالة على منزلة اللغة وعلى الاعتناء بحفظها والحرص على حياتها من قبل العلماء في القديم والحديث فلا غنى من الرجوع إلى هذه المقدمة الشافية الوافية لإدراك نظرة المؤلفة إلى جوهر اللغة وكيانها.

أما الأبواب التي تضمنها الكتاب فهي ثلاثة أبواب وكل باب

منها يشتمل على فصول كثيرة ؛ فقد سمّت الباب الأول: حركة الإحياء المعجمية فتعرضت لمعجمات اللغة في القديم والحديث، فتكلمت على ترتيبها وتنسيقها وعلى ما يتصل بهذا كله، وعلى مناهجها في شرح الألفاظ وعلى الأطوار التي تقلبت فيها معجماتنا في عصورها المختلفة، ولم تغفل في بعض الحالات عن نقد بعض المعجمات في رد طائفة من الألفاظ إلى أصولها، وفي هذا كله جهد غير يسير.

وليس هذا كله ما تضمنه فصل المعجمات اللغوية، فقد انتقلت المؤلفة في الفصول التالية إلى الكلام على أطوار المواد اللغوية في المعجمات من حيث قصور التعريف والإبهام والمقالة اللغوية، وبعد الفراغ من هذا البحث تكلمت على الموسوعات ومعجمات الأعلام والتاريخ الأدبي ومعجمات المعاني ونوادر اللغة في بلاد الشام والتعريب. ولا تغني الإشارة إلى هذه المباحث عن الرجوع إليها وإطالة النظر فيها.

وأما الباب الثاني من الكتاب فقد جعل لعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة وعلمها والعروض والخط.

وقد اقتصرت في الباب الثالث على ذكر الخصائص العامة لحركة الإحياء اللغوي. ولم تخل الفصول كلها من نقد إذا احتاج الأمر إلى النقد ومن بيان رأي خاص إذا لزم هذا البيان. وختمت المؤلفة أبواب الكتاب وفصوله بخاتمة ذكريات فيها أهم ما وصل إليه البحث في هذا السبيل.

لقد دل كتاب حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام على اطلاع صاحبته الواسع في علوم اللغة، وعلى تدقيقها في

المراجع التي رجعت إليها وعلى فهمها لخصائص هذه المراجع وإدراكها لها وفطنتها إلى محاسنها، كل هذا يدل على ميلها إلى علوم اللغة وعلى استعدادها للأخذ والرد في هذه العلوم. ولا شك في أن القارىء يشعر بالمجهود الذي بذلته المؤلفة في تأليف كتابها، وإذا كنت لا أرى مجالاً للتنويه بكل ما جاء في محتويات هذا الكتاب فإني لا أقصِّر في أن أشكر للمؤلفة الفاضلة اهتمامها بموضوع اللغة وغيرتها على هذه اللغة التي هي عنوان تاريخنا وحضارتنا.

١٩٧٦م

وحي الألفاظ

في رحلة ابن بطوطة ألفاظ كثيرة تتعلق بالمآكل والمشارب والملابس والمراكب والعمران والألقاب وغير ذلك من مظاهر الحياة ، وقد فسر ابن بطوطة نفسه طائفة من هذه الألفاظ بحسب دلالتها في بلاد الأعاجم التي شاعت فيها ، وانتخب الدكتور سليم النعيمي ألفاظاً من هذه الرحلة تكلم عليها في مجلة المجمع العلمي العراقي في مقالات متسلسلة عنوانها:

ألفاظ في رحلة ابن بطوطة ، ولا شك في أنه يستحق الثناء على عمله .

إنا نمر بكثير من ألفاظ الرحلة قد نفتقر إلى معرفة معانيها لأنها استفاضت في بلاد أهلها أعاجم ، فإذا لم نقف على معاني هذه الألفاظ فقد يفوتنا كثير من مظاهر الحياة في البلاد التي رحل إليها ابن بطوطة وما أكثر هذه البلاد! وحسبي الإشارة إلى جملة منها، فقد رحل إلى الأناضول وخوارزم وخراسان والهند والسند والصين ومقديشو وجزائر مالديف وغيرها مما لا حاجة بنا إلى إحصائه. إن رحلة ابن بطوطة تختلف في هذا المعنى عن رحلة ابن جبير، فإن ابن جبير لم يرد في رحلته ذكر بلاد الأعاجم التي ورد ذكرها في رحلة ابن بطوطة، ومن أجل ذلك لا تشتد حاجتنا إلى تفسير ألفاظ رحلته.

لست أرمي في مقالي هذا إلى الكلام على الألفاظ التي جاءت في

رحلة ابن بطوطة ولا إلى الكلام على تفسيرها سواء أتولى هذا التفسير ابن بطوطة أم تولاه الدكتور النعيمي ، ولكن غرضي الإشارة إلى ألفاظ قليلة وردت في رحلة ابن بطوطة وشاعت في دمشق سواء أكانت هذه الألفاظ عربية أم كانت أعجمية ، فهي تحيي في أذهاننا بعض الصور في ماضي دمشق القريب ، إنها تدل على مسميات قد اختفت أو كادت مما له صلة بزينة البيوت أو بالملابس أو بالمراكب أو ببعض أنماط العيشة ، ولا ريب في أن إحياء هذه الصور يدخل السرور على قلوبنا لأنا نحب أن نعرف كيف كانت الحياة في دمشق أو كيف كان جزء من أشكال هذه الحياة .

إني لا أشير إلى الألفاظ التي شاعت في بلاد الأعاجم ولم يصل شيوعها إلى بلادنا، لأني لا أرى في هذه الإشارة فائدة، فالقارئ يستطيع أن يرجع إلى رحلة ابن بطوطة ويقف على بعض الألفاظ المتصلة بالأكل والشرب واللبس وما ماثل ذلك ، وإني لأكتفي بذكر ألفاظ قليلة استعملناها في لغتنا العامة في دمشق .

فلنشرع في ذكر ألفاظ تصور لنا زينة البيوت في داخلها . من هذه الألفاظ : القاشاني والصيني . فمن كلام ابن بطوطة في حديثه عن المسجد الجامع بتبريز : " وصحنه مفروش بالمرمر ، وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج " وأضاف الدكتور النعيمي إلى كلام ابن بطوطة ما يلي :

معرب كاشاني نسبة إلى كاشان من مدن العراق العجمي قرب أصبهان

ولعله من مصنوعاتها ، ويقال إنه في الفارسية مشتق من كاش أو كاج بالجيم المعقودة ، بمعنى الزجاج لأن القاشاني مربعات من الخزف المموه وهو مختلف الألوان .

فالذي يعنينا من كل ذلك أن لفظة القاشاني شائعة في دمشق والناس يقولون : القيشاني، وعلى مقربة من سوق الحرير: حمام "القيشاني" وقد حول إلى مخازن ولم يبق أثر من الحمام ، فالقاشاني أو "القيشاني" كنا نجده في بعض بيوت دمشق القديمة في مربعاتها أو قصورها أو قاعاتها، والقصر في البيت يطلق على الغرفة العالية التي يقضى فيها فصل الشتاء. فالفائدة في هذه اللفظة أنها تدلنا على طراز من زينة الحيطان في بعض بيوتنا القديمة ، أما اليوم فلا نرى في عمراننا الحديث أثراً للقاشاني، فالعمران من صفاته البساطة وقلة التكاليف، فمن الذي في أيامنا يبني بيتاً ويفرش حيطانه بالقاشاني على الرغم من حسن هذا الفرش وهذه الزينة . وهكذا نجد أن لفظة القاشاني التي شاعت في لغتنا العامة تدلنا على شكل من زينة الحيطان لم يبق له أثر، وقد استطعنا أن نعرف أصل هذه المادة ومن أين جاءت إلينا .

وقريب من لفظة القاشاني لفظة : الصيني . قال ابن بطوطة: "ومررت ببعض أزقة دمشق فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت منه صحفة من الفخار الصيني " فالذي يهمنا من هذه العبارة لفظة: الصيني. إنها تحيي لنا صورة من صور الأثاث في بعض بيوت دمشق القديمة، فالأغنياء من أصحاب هذه البيوت كانوا يقتنون ما نسميه : الزبادي الصينية والصحون الصينية، وكانوا يضعونها في القاعات ويحرصون عليها لقيمتها وحسنها ، وكانوا يفاخرون بها . أما اليوم فلا تقع عيوننا في البيوت على شيء من الزبادي الصينية أو الصحون الصينية. وهكذا نرى أن اللغة إنما هي صورة الحياة .

وما دمنا نذكر القاشاني والصيني في بيوتنا القديمة فلا بأس أن نمكث قليلاً في هذه البيوت لنرى فيها طراز المؤنة : قال ابن بطوطة

في حديثه عن ملكة كيلكرى : " وأمرت لي بأثواب وأربعة مرطبانات وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون " . وأضاف الدكتور النعيمي إلى كلام ابن بطوطة ما يلي : وكان المرطبان معروفاً في بغداد وهو إناء ضخم ، مفرطح بعض الشيء يتخذ للطعام ويصنع من النحاس ،وفي المعاجم الفارسية : مرتبان، وهو إناء من الخزف تحفظ فيه الأدوية والمربيات أو الأفاويه أو الخبز.

فالذي يعنينا من كل ما ذكره ابن بطوطة أو ما ذكره الدكتور النعيمي من وصف المرطبان أن المرطبان معروف في بيوت دمشق بهذه الصفة نفسها ، ولكن الذي نعلمه أنه يصنع من الزجاج ، إني لا أهتم بهذه اللفظة إلا بمقدار ما لها صلة بطراز حياتنا في بيوتنا القديمة.

فقد كان لنا في الماضي طراز خاص في مؤنة البيت، فقد كان في معظم البيوت بيت اسمه : بيت المؤنة . يخزن فيه السمن والزيت والدبس والخل والأرز والبرغل والسكر وما يتبع ذلك من المؤنة، حتى لقد كان في البيوت مخزن للقمح اسمه : كندوش ، يخزن فيه القمح ويؤخذ منه من حين إلى آخر مقدار للطحن، ثم يعجن الطحين ويرسل إلى الفرن للخبز، لقد وردت هذه اللفظة في معجم الفيروزآبادي بالجيم: كندوج وجاء في تفسيرها : الكندوج شبه المخزن معرب كندو وكندجة الباني في الجدران والطيقان : مولدة . لقد بطل كل هذا في أيامنا، فأغلب البيوت في العمران الحديث خال من بيت المؤنة ، فأي بيت يحتوي اليوم على كندوش أو كندوج للقمح . فما أطرف الصورة التي أحيتها لنا لفظة : المرطبان!.

وهل علينا من حرج إذا انتقلنا من زينة البيوت ومؤنتها إلى قليل مما له بعض الصلة بالثياب : قال ابن بطوطة في حديث عن وزير

جزيرة ذيب المهل : " جاء الوزير إلي بعد العشاء ومعه غلامان .. فألقى إلي أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقاً فيه جوهر فأعطاني ذلك " . وأضاف الدكتور النعيمي : إن البقشة هي بالفارسية : بقجة ونقل عن " دوزي " أن الكلمة تركية وهي معروفة بهذا الأسم في بغداد الآن ويطلقونها على قطعة من القماش مربعة ومبطنة وتوضع فيها الملابس وتشد من أطرافها الأربعة .

لسنا نعني الآن بأصل هذه المادة ولكن الذي يعنينا من أمرها أنها مستعملة في دمشق بالمعنى نفسه ، وهذه المادة تدلنا على طور من أطوار حقائبنا في الماضي فما كانت حقائب الجلد " الشناتي " مستعملة وإنما كان الناس إذا سافروا أو انتقلوا من محلٍ إلى محل يضعون ثيابهم في البقجة، أما الآن فنكاد لا نرى بقجة لمسافر في سيارة أو طيارة أو قطار فالثياب توضع اليوم في حقائب من جلد " الشناتي " .

ومن ذكريات البقجة في دمشق أن الناس في أعراسهم كانوا ينقلون جهاز العروس من بيت العريس، إلى بيت العروس على الرؤوس والأيدي ويطوفون بهذا الجهاز على أقدامهم في الأسواق والحارات حتى يصلوا إلى بيت العروس وكان الجهاز يشتمل على بقج مطرزة ، وإذا كان الجهاز ثميناً قال الناس فيه إنه جهاز ثقيل ، هذه هي اللفظة التي كانوا يستعملونها في الدلالة على محاسن الجهاز ، وكل هذا قد بطل في يومنا فلا يطاف بجهاز في الأسواق والحارات ولا توضع الملابس في البقج .

ومن الألفاظ التي جاءت في رحلة ابن بطوطة وهي تدلنا

على نوع من الملابس في ماضي دمشق لفظة ، السمّور ، فقد قال ابن بطوطة في حديثه عن أرض الظلمة : " فإذا كان من الغد عادوا «المسافرون» لتفقد متاعهم فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب " ففروة السمور كانت من ملابس أهل دمشق في الشتاء ، كان يلبسها الأغنياء وقد يلبسها بعض النساء ، وهذا النوع من اللباس كانوا يتباهون به، ولكنه اليوم قد بطل أو كاد، فلا نجد من يلبس فروة السمور في الشتاء . فكما يبطل نوع من الزينة في البيوت فقد يبطل نوع آخر من اللباس طبقاً لأطوار الحياة.

ومن هذه الأنواع التي قل استعمالها : الكمر، قال ابن بطوطة في حديثه عن مدينة جَرَون ، بفتح الجيم والراء وآخرها نون وهي قاعدة جزيرة هرمز الجديدة : " ولقيت بهذه المدينة الشيخ صالح السائح أبا الحسن الأنصراني وأصله من بلاد الروم، فأضافني وزارني وألبسني ثوباً وأعطاني كمر الصحبة " فالكمر ومعناها الحزام مستعملة في دمشق وهي غير عربية ، وما يهمنا أن تكون فارسية أو غير ذلك، إنما الذي يهمنا أن الكمر كان من بعض ملابس الناس في دمشق، وهو حزام يشدونه على أوساطهم، وفي بعض الحالات كانوا يحفظون فيه ليرات ذهبية إذا ذهبوا من دمشق إلى بلد آخر من باب الحيطة، وهو نوع من اللباس قليلاً ما يستعمل اليوم.

وآخر ما أريد ذكره من هذا النمط لفظة : الفوطة ، فمن كلام ابن بطوطة في حديثه عن أهل مقديشو: " وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل

فإنهم لا يعرفونها " فالفوطة لا تزال شائعة في لغتنا العامة في دمشق فنحن نقول : فوطة الحمام ، وهي على نحو ما قال ابن بطوطة يشدها الإنسان في وسطه ، فهذه اللفظة تذكرنا حمامات دمشق في الماضي ، وقد اختفى معظم الحمامات المشهورة وبقي قسم منها في بعض الحارات، لأن البيوت الحديثة فيها حمامات يستحم فيها أصحاب هذه البيوت ، أما في الماضي القريب فقد كان لكل حي من أحياء دمشق حمام بوجه التقريب يقصده الرجال في الصباح والنساء بعد الظهر ، وحمامات النساء فيها عادات خاصة ، فقد كان النساء يجلبن معهن إلى الحمام بعض المآكل فلا يقتصرن على الاستحمام وحده، ولكنهن كن يقطعن الأوقات في الأكل والانبساط من الظهر إلى المغرب حتى وإلى العشاء وهكذا ذكرتنا الفوطة بحماماتنا التي كادت تختفي آثارها .

وأحب أن أختم هذا المقال بلفظة : المحارة الدالة على موكب الحج في دمشق ، ذكرها ابن بطوطة في حديثه عن بغداد قاصداً الحج ، قال: وقصدت أميرها فعين لي شقة محارة ، وقال : ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت حمالاً واشتريت محارة ، وقال الدكتور النعيمي : وفي القاموس : المحارة هي شبه " الهودج " فهذه المادة عربية فهي لا تشبه بعض ما مر بنا من الألفاظ الأعجمية . إن لفظة المحارة تذكرنا موسم الحج في دمشق من سبعين سنة . فقد كان لهذا الموسم يوم مشهود يخرج فيه باشا الحج على فرسه ويصطف فيه الناس من السنجقدار إلى آخر حي الميدان على سبيل الفرجة ، فالنساء على سطوح

البيوت والدكاكين حتى إذا وصل الموكب إلى آخر الميدان ، إلى العسالي ، انتهت الفرجة ورجع كل واحد إلى عمله ، فالمحارة وهي شبه الهودج من ألفاظ الحج ، كان يجلس فيها الحجاج على ظهر الجمل ، فلا سيارات ولا طائرات وإنما جمال تقطع المسافة الشاقة بين دمشق والحجاز في أيام وليال طويلة .

أفرأينا كيف انتقلت الحياة من طور إلى طور وكيف أن الألفاظ التي تصور لنا هذه الأطوار أصبحت مخزونة في أذهاننا لا تدلنا إلا على ذكريات خلت. فلننعم بوحيها ! .

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٧

صفحة خالدة

في الجزء الثالث من يتيمة الدهر صفحة في التجديد كتبها أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المقيم ، قال أبو الحسين : " ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، ولمه تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الأول للآخر ، وهل الدنيا إلا أزمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأوهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود، ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك رأيه، وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، أو علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ... "

إلى أن قال: " ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير ، ولضلت أفهام ثاقبة ، ولكلت ألسنة لسنة ، ولما وشّى أحد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ، ولمجت الأسماع كل مردد مكرر ، وللفظت القلوب كل مرجّع ممضّغ .

صفحة خالدة في أدبنا تدل على امتداد فكر صاحبها ، وعلى إيمانه الشديد بانتقال الحياة من طور إلى طور على تراخي الأحقاب ، فهو عدو الجمود ، وهو نصير التجديد ، ولا ريب في أن الجمود إنما هو

عنوان الموت ، وأن التجديد إنما هو دليل الحياة ، وليس بي حاجة إلى إيضاح شيء مما جاء ذكره في قول ابن فارس ، فقد قال كل شيء وأوضح كل شيء ،فلم يترك مجالاً لقائل ، كما أنه لم يترك مجالا لإيضاح ، وحرام علي تجزئة هذه الصفحة واختصار أفكارها ، فبلاغتها قائمة بتناسقها .

قد يخطر على البال أن ابن فارس قد أهمل شيئاً لم يشر إليه ، ما هو هذا الشيء؟ قد يخطر على البال أن ابن فارس لما أشار إلى التجديد في الأدب لم يشر إلى المحافظة على روح اللغة في هذا التجديد ، ولكن ابن فارس أعقل من أن يفوته هذا الأمر ، وإذا كان لم ينبه عليه فلأنه يعتقد، على ما نرى، أن هذه المحافظة إنما هي من بدائه الأمور ، فلولا المحافظة على روح اللغة في التجديد لما كان لهذا التجديد معنى ولضاع الأدب واللغة ، فليس معنى التجديد أن يخلق كل عصر من العصور لغة خاصة وأدباً خاصاً ، وأن يخرج بهذه اللغة وبهذا الأدب عن روحهما وجوهرهما ، فلو كان الأمر كذلك لتعاقبت العصور دون أن يفهم كل عصر لغة العصر الذي تقدمه والأدب الذي جاء قبله .

إذا رجعنا إلى لغتنا وإلى أدبنا في قديم عصورهما وجدنا أن اللغة لم تثبت على طور من الأطوار ، وأن الأدب لم يحافظ على شكل من الأشكال ، فاللغة من بدء الإسلام ظهرت أطوارها التي دخلت فيها ، وهذا موضوع مديد لا يمكن حصره في مقال مثل هذا المقال ، فالإسلام قد حول ألفاظاً عن معنى إلى معنى، ثم حدثت علوم فاضطروا إلى وضع ألفاظ لها كما وضعوا ألفاظاً للنحو والفلسفة وغيرهما ، وما يقال في اللغة يقال في الأدب ، فالشعر لما انتقل من مضارب البدو في جاهليته إلى قصور الخلفاء في بغداد وغيرها اضطر أصحابه في

الحضر إلى أن يأتوا بصور تخالف البدو ، وهذا أمر نشهده في شعرائنا لا يحتاج إلى برهان عليه .

لكن الشعر لما انتقل من أفق إلى أفق حافظ على روح اللغة وعلى جوهرها، فلم يأت أصحابه بصور غامضة ولا أتوا بلغة تنفر عنها أذواقنا ، وإذا كان المجال لا يتسع للتبسط في هذا السبيل فلا أقل من الاستشهاد بشاعر طبع شعره بروح عصره فكان فيه تجديد من جهة، وكان فيه محافظة على روح اللغة وجوهرها من جهة ثانية ، ماذا فعل البحتري في شعره؟ ليس موضوعي الإتيان على خصائص لغة البحتري في إدخال شعره في طور جديد يختلف عن الأطوار التي كان الشعر فيها على أيام الجاهلية وبعدها ، إنما أرى أنه لا بد من الإشارة إلى شيء يسير من هذه الخصائص، فقد رجعت إلى دفاتري التي دونت فيها بعض روح اللغة التي كان يستعملها البحتري فوجدت أنه رزق قدره غريبة على التأليف بين الألفاظ، من ذلك مثلاً قوله : شباب الدنيا ... بشاشة النعم ... بهجة الخلافة ، ومثل هذه القدرة نجدها في الصفات التي يطلقها على الموصوفات ، مثل قوله : القصور البيض ... البوادي السود ... فقد ينفخ في الموصوفات روحاً تدخل الحياة عليها ، وربما مررنا ببعض شعره بصفة يخيل إلينا أنها من توليد العصر الذي نعيش فيه مثل قوله : همّة مجنونة .

والخلاصة أن البحتري لما أدخل شعره في طور جديد حافظ على روح اللغة في هذا الطور، ولم يخرج عن محاسن ذوقها ، فقد مر عليه أكثر من ألف سنة ونحن لا نزال نرى أن لغته كأنها من لغة هذه العصر ، فلا ننفر عن صفاته التي أطلقها على الموصوفات، ولا نستغرب تأليفه بين الألفاظ، فهو لم يأت بشيء لم يفهمه عصره ولا

فهمته العصور التي جاءت بعده ، فقد نمر في أيامنا ببعض شعر لا نفهمه نحن ، ولا تفهمه العصور في الآتي وهذا هو موت اللغة بأجمعها.

إنا لا نستطيع أن نقف في سبيل قانون من قوانين الحياة بلغ من القوة كل مبلغ ، إنا لا نستطيع أن نكرر أن الحياة تتجدد من زمن إلى زمن ، وإن هذا التجديد يستوجب لغة خاصة وصيغة خاصة ، ولكن الذي ننكره أن تكون هذه اللغة غريبة عن أهلها وأن تكون هذه الصيغة غريبة عن أدبنا ، ومعنى الغرابة في هذا القول ، أن تكون اللغة وصيغة الأدب فاسدين لا نفهمهما نحن ولا يفهمهما من يأتي بعدنا .

أذكر عبارة اطلعت عليها في كتاب وقع عليه نظري عرضاً في مكتبة في مدينة " وليمسبورغ " في أميركة ، فقد قال أحد أعضاء الكونغرس : إنا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين الذين يسرقون ويقتلون، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يفسدون اللغة ! .

مثل هذا القول صدر في بلاد تشيع في أكثرها المعامل والآلات والدخان وغير ذلك من الحضارة المادية ، فما قولنا في بلاد مثل بلادنا لم تحتفظ من ماضيها إلا بلغتها وأدبها ، أفيجوز أن يقضى على هذه اللغة وهذا الأدب ! .

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٥

شامية محمد كرد علي

كان قلم ابن المقفّع كثيراً ما يقف، فقيل له في ذلك فقال: تزدحم الأفكار في صدري فيقف القلم لتخيّره. فلما حاولت أن يمضي لي قول في الاحتفال بذكرى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، أدخله الله في واسع رحمته، تذكّرت قول ابن المقفّع فشعرت بازدحام الأفكار في صدري، فإنّ حياة الأستاذ مديدة الآفاق، فلا يدري القلم بأيّ أفق منها يبدأ، وحسب هذه الحياة أنّ صاحبها عاش في عصر استفاضت فيه حوادث السلب والنهب والقتل والمصادرات وقطع المناخير والآذان، وظلم الأبرياء والاستبداد والقضاء على كلّ حرّية، فضلاً عن طبقة من المشايخ كان الأستاذ الرئيس يعتقد فيهم الجهل والفساد وسوء السيرة، وخلاصة هذا العصر ظلمات في سياسة الدولة وإدارتها، وفي سيرة بعض رجال الدين، وفي تسلّط الأعيان، وقد لخّص خصائص هذا العصر في فصل من فصول مذكّراته عنوانه: عيدنا الوطني، فكيف يستطيع أستاذ مثل كرد علي أن تملأ هذه الأمور عينه وأذنه وأن يغضي عليها أو يتغافل عنها، ففكّر في سبيل الإصلاح وطريق المعالجة فلم يجد سبيلاً أرشد من الصحافة، فهي الأداة التي استعملها على نحو ما قال

«للمطالبة بالإصلاح وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة، وحفز العرب إلى العمل النافع، والتذرّع بالمشاريع المنتجة وبعث القرائح واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة».

لا شك في أن طريقاً مثل هذا الطريق في الإصلاح والمعالجة لا يدخل السكينة على قلب صاحبه، فقد غالب الأستاذ الرئيس الدنيا وغالبته، وبلا خيرها وشرّها، وذاق حلوها ومرّها، وانقلبت عليه وانقلب عليها، ومارس الرجال ومارسوه، ووقع في شرّهم ووقعوا في شرّه. ومن قلّب النظر في مذكراته اهتدى إلى نوع من الحياة لم يكتب لها الهدوء في أيامها، ولكنه على الرغم من هذا كلّه لما أشرف على الثمانين من عمره خاطب نفسه مخاطبة من لم يبال بكل ما مرّ به في سبيل الإصلاح فرجع إلى صفاء عقله فقال:

«يا نفس لا تغضبي ولا تعتبي فقد عمرت طويلاً، ومتعت كثيراً، وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة، وهِمْتِ بصنع الخالق والمخلوق، واستكثرت الخلان والمعارف، وسعدت إذ كنتِ أقرب إلى التفاؤل من التشاؤم، وإلى الرجاء أدنى من القنوط، وإلى السرور أكثر من الغم، وعشت في سلطان الرضا طيّبة الطعمة لا يد لأحدٍ عندك».

لقد كُتب لي من الاتصال به ما لم يُكتب مثله إلاّ لقليل، فكان وزيراً للمعارف مرتين، فتهيأ لي بعد طول المخالطة أن أقف على كثير من خصائصه، على ظواهره وبواطنه، على مزاجه وطبعه وخلقه، ولكني أتعدّى هذا كلّه في كلمتي وأحبس ذهني على ناحية واحدة من نواحيه، على فرط حبّه لأرضه وعلى ما نشأ عن هذا الحبّ وهذا التغنّي، أرى من الواجب عليّ أن أختصّ بالشكر الأساتذة الذين لم ينسوا محمد كرد

علي ولم يغفلوا عن الاهتمام بذكراه، فكأنهم أدركوا أن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات، آخر عصرٍ متصل بأول العصر الذي يليه، يسلّمه ما شاع فيه من المحاسن. وما يقال في اتصال هذه العصور يقال في اتصال رجالها على مختلف منازلهم، فليس من الإنصاف في شيء أن يهمل رجال زمنٍ من الأزمان التنويه بفضائل من سبقوهم، سواء اتفقت آراؤهم ومذاهبهم أم اختلفت، فإنّ في مثل هذا الإهمال طمساً لحقائق التاريخ واستنكاراً للمحسنين إلى هذا التاريخ، ونحمد الله تعالى على أنّ مجمعنا لم ينس أوّل رؤسائه محمد كرد علي، ولا ريب في أن تذكّره إيَّاه يدخل السرور على قلبه في عالم الغيب، فلقد شكا إهمال الناس لرجالهم من أصحاب الفكر والبيان الذين أنشؤوا ثورة العقول قبل إنشاء ثورة السيوف، وأفصح عن هذه الشكوى وذكّر أصحاب الأمر والنهي بفئة صالحة كانت من العاملين الممتازين فقال:

«نحن لا نومئ هنا إلى من لم يكونوا مع الثائرين في وقت من الأوقات، بل إلى من كانوا مع الثائرين من البداية إلى النهاية، وكانت عين الرضا متجليّة على كل من حمل السلاح، أما من شقيت حياتهم في إعداد الأفكار للثورة الحقيقية ومهّدوا السبيل لإنارة الأفكار، وجاهدوا سنين حتّى لقّنوا الأمة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية فهؤلاء لاحظّ لهم من التنويه لأنهم ما حملوا السلاح».

لا شك في أنه يعني نفسه بشقاوة الحياة في إعداد الأفكار للثورة الحقيقة وتمهيد السبل لإنارة الأذهان، ولا شك في أنه يعني نفسه بتلقين الأمة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية، فإذا كانت نهضتنا الحديثة قد نسيت الأستاذ الرئيس محمد كرد علي فإن مجمعنا لم ينس رئيسه الأول الذي أحبّ أرضه وقومه أشدّ محبّة، وأوحى إليه هذا الحب

ما أوحى من مقالات ومحاضرات وكتب أعربت عن منزلة أرضه وقومه في أعماق نفسه أبلغ الإعراب، ومكّنت هذه المنزلة من قلوب أهل عصره كلّ التمكين.

انتدبت الحكومة العثمانية الأستاذ الرئيس محمد كرد علي خلال الحرب الكبرى الأولى ليكون في جملة الوفد الشامي إلى الآستانة، فودع غوطة دمشق في مقال كلّه شعر. ولا مندوحة لي عن الرجوع إلى بعض مقاطع هذا المقال، من هذه المقاطع قوله:

«وداعاً غوطة دمشق الفيحاء، مجلى الطبيعة ومغنى الأنس وروضة الطيبات ومهبط التجلّيات، سلام زكيّ كتربتك المسكية، جميلٌ جمال بسطك السندسية، عَطِر كأنوار أدواحك الجنيّة، وتحيّة طيّبة تتساقط على عمرانك تساقط الوابل والطلّ على جنّاتك الغبّاء، وحراجك الغلباء، وأشجارك الميلاء، وغلاتك الكثيرة الإتاء».

وإذا تغنّى في هذا المقطع بطبيعة الغوطة وأرضها فقد تغنّى في المقطع التالي بطيرها وحيوانها فقال:

«سلام غوطة دمشق كلّما غرّدت أطيارك فملك على المشاعر سجع الحمام واليمام، وهديل العندليب والهزار، وتغريد العصفور والشحرور، كيف لا تستهوين النفس ونعيق الغربان ونقيق الضفادع إذا ردّدهما الصدى في لياليك يفسّرهما القلب بمعانٍ لا نُفهم منهما في الكور الأخرى كما يفسّر في النهار ثُغاء الماعز وجؤار البقر وخوار الثيران».

إذا كنتُ قد حبست ذهني على أفق من آفاق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، على أفق محبّة الوطن ومحبّة قومه، فما ذلك إلاّ لأنّ الأستاذ، نضّر الله عظامه، رأى في غوطة دمشق ما يراه بعض الإفرنجة في مدنهم، فإن مدن الوطن في نظرهم إنما هي بمنزلة الكتب، ولكنّها كتب

مصوّرة، يقرؤون فيها أخبار أجدادهم ويرون فيها صور الأجداد، إنّهم يقدّسون دُور أحقر مدينةٍ من مدنهم، لأن هذه الدُّور قد أوى إليها الحبّ والبغض واللذة والألم في قرون متوالية، إنها تحتفظ بأسرار رهيبة وتعرف أشياء كثيرة عن الموت والحياة، ولو كانت حجارتها تتكلّم لقالت لأهلها أشاء تُضحك وأشياء تُبكي.

لقد فتن الأستاذ الرئيس بغوطة دمشق أعظم فتنة، فإذا اعتزل دمشق إلى ريفه في الغوطة، إلى داره في قرية جسرين، فإنمّا يعتزلها ليصغي إلى أحاديث كتاب يجالسه إصغاءه إلى حفيف الشجر وتغريد الطير وثغاء الغنم وجؤار البقر، فللغوطة في نفسه منزلة رفيعة، فقد فُتن بكل شيء فيها، فتن بخضرتها وطيرها وحيوانها وكثيراً ما سمعته يقول: لكل شجرة من شجرها ولكل بقعةٍ من بقاعها منزلة في قلبي، فقد كان يقضي فيها بعض لياليه ويجمع فيها خواطره ويؤلّف فيها مؤلفاته، وهذا النوع من التّعلق بالأرض والحنوّ عليها والحنين إليها إنما هو الوطنيّة المجرّدة من الجعجعة وأباطيل البيان، لأن هذه الأباطيل تجعل الحّب باطلاً، فارغاً، فمن وراء منعطفات السواقي والأنهار ووراء الحدائق والشجار بلاد الملوك القدماء والقصور المصقولة كما يُصقل الجوهر، فيذكّرنا هذا كله وطننا القديم وما كان عليه في العالم، فنشعر بفرط الحنوّ على هذا الوطن وهذه الأرض.

لم ألمح إلى ما ألمحت إليه من إفراط الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في محبّة وطنه وقومه على شكل هادئ، صافٍ، إلاّ لأن هذه المحبّة قد نشأت عنها مؤلفاته القيّمة وفي مقدمتها

خطـط الشـام، فقـد أضـاف بخطـط الشـام إلـى وطنيتـه الصافيـة قوميتـه الراسـخة، أي جمـع بيـن محبّـة الأرض ومحبّـة مـن ملكـوا هـذه الأرض وتعـاقبوا عليهـا أحقابـاً طويلـة ورزقوهـا مـا أوحـاه إليـه أدبهـم وعلمهـم وفلسـفتهم وحضـارتهم. ومـا خطـط الشـام علـى نحـو مـا ذكـره الأسـتاذ الرئيـس فـي مقدمتـه إلاّ: «زبـدة الوقـائع والكوائـن وأخبـار الصمـود والتدلّـي والمظـاهر الغريبـة التـي ظهـرت بهـا هـذه الديـار فـي غـابر الأعصـار». فالأسـتاذ أحـبَّ أرض الشـام ورجـالات الشـام، أحـب كـل عظمائهـا ولـم يقتصـر حبـه علـى عظمـاء الشـام وحدهـم، وإنمـا أحـبّ عظمـاء العـرب بـأجمعهم علـى اختـلاف ديـارهم.

ولقد حمله حبّه للعرب وتغنيّه بحضارتهم على أشدّ الدفاع عمّا تمّ على أيديهم من جلائل الأعمال، ومن طـالع نقده لبعض الكتب فـي مجلّـة المجمع العلمـي العربـي شـعر بشـعوره القويّ بـالدين وبالقوميـة، ولـولا الخـوف مـن الإطالـة لتبسطت في الاستشهاد بهذا الشعور.

أمّـا فـي الديـن فكـان يكـره الحشـو والتفريـق بيـن المسـلمين وبيـن غـيرهم مـن أهـل الأديـان، وكـان يتمنـى أن تكتـب كتـب الديـن فـي عصرنـا بأسـاليب أبـي يوسـف فـي الخـراج والزمخشـري فـي الكشّـاف والغزالـي فـي الإحيـاء وابـن حـزم فـي الملـل والنحـل، وأمّـا دفاعـه عـن القوميـة فكـان يقـف بالمرصـاد لكـل كـاتب يُحـس بـأن فـي كتاباتـه عـن العـرب بعـض الانحـراف عـن الحقيقـة لتعصّـب أو لأمـرٍ آخـر، ولا يهمّـه فـي هـذا البـاب أن يكـون لهـذا الكـاتب صلـة بأصحـاب الأمـر والنهـي، فكـان شـديداً علـى مـن تحدّثهـم أنفسـهم بسـلب العـرب مزايـاهم.

أفيحتاج كاتب من بلغاء الكتّاب أو مؤرخ من كبار المؤرخين إلى أكثر من هذا الفضل لتخليده على ترادف السنين؟. وإذا كنت لم آت في هذه الكلمة الوجيزة على كل ما اختصه الله تعالى به من المحاسن فإني اكتفي بتلخيص هذه المحاسن في كلمة واحدة، فإني أرى في «شامية» الأستاذ الرئيس محمد كرد علي جملة عبقريته وتفاصيلها. وأحمد الله تعالى مرّة ثانية على أن مجمعنا ورجال هذا المجمع لم ينسوا منزلة الأستاذ العظيم الذي أضاءت عبقريته ظلمات الشام من بدء حياته إلى أن دخل جنة الخالدين.

محاضرة ألقيت في قاعة نقابة
المحامين بدمشق
١٧/تشرين الثاني/١٩٧٩

سخرية الشدياق

السخرية تعبير عن ألم دفين. وأسلوبُ بارع في تصوير عيُوبنا!.

يقول «أندره موروا» في فصل من كتابه «دراسات أمريكية»: (من الكتب كتب تنزل حين صدورها منزلة الآيات البيّنات ثم لا تلبث أن تموت بعد بضع سنين وأن ينساها الناس على وجه الدهر، ومن الكتب كتب ثلمت الشعور حين صدورها، فلم ترق الناس، إلا أنها احتفظت بشباب عجيب ودخلت جنّات الخالدين).

إذا صح هذا القول، وأظنه صحيحاً، فإن كتابات الشدياق جرحت بعض الشعور حين صدورها، إلا أنها على الرغم من ذلك قد احتفظت بشبابها، وإذا لم تدخل حتى الآن جنّات الخالدين فقد آن لها أن تدخل هذه الجنات.

لقد أبدع الشدياق في كتاباته حلاً للحياة الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ولكنه أبدع هذا الحلّ بروح جديدة في الأدب وهي السخرية، إنا نعيش في عصر تباينت فيه العقائد وتباعدت المذاهب وتفاوتت مهابّ الأفكار الحديثة، وكلّ واحد يدافع عن عقيدته ويناضل دون مذهبه ويرامي دون مهاب أفكاره، ولكن لا يستطيع كل واحد أن يكبح من جماح بيانه ولسانه، فإذا علمنا الشدياق أمراً في الأدب، فقد علّمنا هذه السخرية في تقويم كل اعوجاج وإصلاح كل فساد!

لم تكن السخرية في قديم الدهر إلا طريقة بسيطة من طرائق المناظرة لجأ إليها «سقراط» فنسب إليها اسمه، إلا أنها أصبحت يومنا هذا طريقة من الطرائق التي نتقي بها العواطف العنيفة وندفع بها عن أنفسنا الأهواء العميقة، فنحن نخاف أن نألم، نخاف أن نتلف، نخاف أن يزعجونا في عاداتنا وهدوئنا، فنسخر بدلاً من أن يكدرنا مكدر، فنضع بهذه السخرية كل أمر من أمور الناس في نصابه، ونعلمهم كيف نحكم على سيرتهم، إنا لا نجرؤ على أن نجرح الناس جرحاً مكشوفاً، ولكنا نقصد إلى أساليب ثانية من هذه الأساليب وهي السخريةّ... وهذه خلاصة ما قاله أحد أدباء فرنسا من رجال الأكاديمية.

الظاهر أن السخرية تستفيض في العصور التي يشتد فيها ضجر الناس وألمهم، ضجرهم من ظلم الحكومات وجهل الطبقات وفساد العادات وسيطرة العامة وانحراف الأخلاق والطبائع وما شابه ذلك، فيجد الناس في السخرية متنفساً يتنفسون منه فيفرجون من غمتهم ويخففون من خَطبهم. وقد تدل السخرية في ظاهرها على مرح وحبور؛ ولكنّا إذا تعمقنا في هذا الظاهر وجدنا أنها ناشئة في الأغلب من الأحوال عن ألم كامن وهم مستور، إني أعرف أديباً من أدباء هذا العصر تظهر آثار الكآبة على كل تقاطيع وجهه وتنم هذه الكآبة عن ألم في بواطن نفسه، وعلى الرغم من هذه الكآبة وهذا الألم كانت السخرية تغلب على أحاديثه فيخيّل إلى الأذهان أن صاحبها من أظهر الناس بشراً. وقد كنا أنا وأستاذ من أساتذة مصر نفيض في أمر سخرية المصريين ونحاول أن نرد هذه السخرية إلى أصولها، فكان رأي هذا الأستاذ الجليل أن مبعث سخرية المصريين ألم مدفون في أعماق نفوسهم في خلال الأحقاب الطويلة.

إذا رجعنا إلى سخرية الشدياق تبين لنا أن هذه السخرية لم يكن مبعثها في الأصل إلا مثل هذا الألم على الرغم من مزاج صاحبها المرح الضاحك. وكيف لا يألم رجل مثل الشدياق وقد عاش في عصر ليس فيه ما يسر النفس في ناحية من النواحي. لا من حيث العلم ولا من حيث العدل ولا من حيث صحة الشعور الديني ولا من العادات والأخلاق والمجتمع، وقد فتح الشدياق عينيه على بيئته، فبرزت له مفاسد هذه البيئة من مجامع جوانبها، فكيف يصلح هذه المفاسد وكيف يقوّم هذه الاعوجاجات وكيف يهدي هذا الضلال أو يهذب هذه النفوس؟

إنه إذا لجأ إلى عنف القول وشدته عرّض نفسه للأذى، وربمّا لا يبلغ بهذا العنف وهذه الشدة ما يريد، فذهب إلى ألين الأساليب، وهو أسلوب السخرية، ولكن هذا الأسلوب على لينه الظاهر يشتمل على قوة لا يشتمل عليها الإفحاش في القول، فبلغ بسخريته ما لا يبلغ بشيء من خشونة القول، لإنها تنطوي مرّة على العذاب ومرّة على الخبث وحيناً على المقاتل وحيناً على الجرح دون الإجهاز، غير أنه لم يقصد إلى هذه السخرية لمجرّد تهدئة الثورة في نفسه أو تسكين الغضب في مزاجه، وإنما قصد إليها لسبب أسمى، كان يرمي في سخريته إلى إخراج الناس من جهالتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء، كان يرمي فيها إلى التهذيب والتعليم، إلى الإصلاح والإرشاد، فكانت غايته منها رفع المجتمع إلى أعلى المنازل.

ولم يقتصر على السخرية من مجتمعه وحده، وإنما رحل إلى مالطة وأوروبة فصبّ سخريته على كل ما انحرف عن سواء السبيل في كل أمر من أمور الحياة، فلم يسكت عن شيء لأن السخرية أصبحت مَلَكَتَهُ الغالبة وسلطانه القاهر، تهيأ له من سحرها ما لم يتهيأ لغيره.

لم يسخر كاتب من مجتمعه سخرية الشدياق، فلم ينفلت من استهزائه شيء في الحياة، التفت إلى عصره فوجد أن ثقافة هذا العصر مظلمة الجوانب فسخر منها. سخر من رجال السياسة والألقاب وأمراء الجبل وكتابهم والأغنياء ومعلمي الصبيان والفقهاء، والشعراء، والأدباء، والأطباء، والتجار، والنساء وازداد توغلاً في هذه الطبقات فسخر من كل طائفة، من مخاطباتها وعاداتها وأخلاقها ومعتقداتها، ولم يبق عليه إلا أن يسخر من نفسه.. فلم يقصر في ذلك.

وإذا كان ذكر أنماط من هذه السخرية أدل عليها فلا بأس بذكر طائفة من هذه الأنماط.

لم ينفلت شيء من سخرية الشدياق، ولنبدأ بثقافة المرأة في عصره فقد كان الناس لا يعلمون بناتهم القراءة، لماذا؟ لأن المرأة في رأيهم أول ما تستطيع ضم حرف إلى آخر تجعل منهما كتاباً إلى عاشقها.

لسنا نعلم كلاماً أبلغ من السخرية من قول الشدياق: ضم حرف إلى آخر أو قوله: تجعل منهما كتاباً إلى عاشقها، في سطر واحد صور جهالة عصر بحذافيره، وأنزل كل سخريته على هذه الجهالة.

وسخر الشدياق من رجال السياسة وأمراء الجبل فقال في الأمراء: واتفق أن زارني في صباح ذلك اليوم بعض الأمراء الذين ينبغي أن يقال لما أثبتوه: نعم، في موضع "لا"، ولِمَا نَفَوهُ، لا ، في موضع "نعم".

فهذا الكلام الذي لا يشتمل على شيء من الفحش إنما هو صورة واضحة لعقول الأمراء في عصر الشدياق، وللسخرية من هذه العقول.

ولم يكن إغضاء الشدياق على الأغنياء أقل من إغضائه على الأمراء، فقد سخر من سخافة الأغنياء الذين يزينون دورهم ويزهدون في الكتب، فقد ردّ على بعض من رماه بإيراد كلام لا يليق بالنساء فقال:

«الحامل على ذلك أمران، أحدهما إبراز محاسن لغتنا الشريفة، والثاني أنني قصدت تشويق القارئين، ممن ملؤوا حيطان ديارهم من قصب التبغ، إلى شراء كتاب في اللغة».

من هذا الكلام يتبين لنا أن الشدياق كان يجعل السخرية سبيلاً الى تهذيب الناس وإرشادهم.

وإذا انتقلنا من هذه الطبقة في المجتمع إلى طبقة ثانية أهلها معلّمو الصبيان والفقهاء والشعراء وجدنا للشدياق سخرية منهم أليمة، فقد وازن ابن حزم في أحد كتبه بين حالتي بؤس المرء وتنعيمه وأحزانه ومسارّه، وجعل ذلك في جدولين متقابلين وأسلوبين متفاضلين، فأحب الشدياق أن يعرف أي الجدولين أفضل، فسأل أحد معلّمي الصبيان فإذا بهذا المعلم: قام يصفق بيديه ويرائي بعينيه ويقول: لقد سقطت على الخبير واهتديت برأي بصير، إن شئت أن تعرف أي القولين أرجح وأصدق وأصح فزن الجدولين دون جلد الكتاب في ميزان، فما رجح منهما فهو الراجح، ما اختلف في ذا اثنان.

إنّا نعرف رأي الشدياق في معلّمي الصبيان من حيث السخافة والجهل والبعد عن الفهم، وما نظن أن سخرية تستطيع أن تصوّرهم في مثل هذه الحالات نظير السخرية التي سمعناها.

سخر الشدياق من الشعراء عامّة. من ناحية فنِّهم وصنعتهم فقال:

«ومن كان قد قرأ بعض أشعار وسمع من أهل العلم مثلاً أن الشعر منقبه تعدّى إلى أي نظم كان، فإذا رأى طائراً في الجو نظم فيه قصيدة، وإذا تزوج أحد في بلده نظم فيه تواريخ وإذا توفي قال: قد غاض بحر الكرم ودكت أركان المعالي وذوت رياض الفضائل وأفل نجم الهدى وخسف بدر المجد وكسفت شمس الفضل، ثم لا يزال يطلع في عاجلة

النبيّ إلياس حتى يصل إلى الفلك الأثير ويعدّد جميع ما هنالك من النجوم وينتزع منها كفنا لمرثيه - ذلك حتى يقال عنه إنه شاعر!».

ولم يخل الأدباء من تعقبه إياهم فقد كان يسخر من ضياع وقتهم في موضوعات لا تستلزم الاهتمام، والظاهر أن الذي كان يؤلمه كثيراً إنما هو اختلاف مسائل النحو ونزعة أهله إلى الأخذ والرد فيه. وإذا كان الشدياق لم يرحم هذه الطبقات التي أشرنا إليها فكيف يرحم التجار في جهلهم؟ كان يصف تجار الإنكليز وتجار فرنسا من حيث مكاتباتهم التجارية فخطر بباله في الحال تجار بلاده وطرز إنشائهم فقال: «كما أن عبارة هؤلاء - أي الإنكليز - بالنسبة إلى عبارة تجار بلادنا في غاية الفصاحة، ولعمري إن تاجراً يكتب: لق أي لا، ومضه أي الإمضاء، والسالسي أي الثالثة، ومنقول أي نقول، وأعرض عن هذا الشيء أي عرض هذا الشيء، والخصارة أي الخسارة. ونبتدي بحساباً جديداً وبخيراً وعافية ونحو ذلك لجدير بأن يسحى من حرفته».

أما الأطباء المساكين فلم يسلموا من شرّ أحد لا في القديم ولا في الحديث وهذا رأي الشدياق فيهم:

«فإني أرى هؤلاء الأطباء يعالجون الأمراض بالخرص والتخمين، فما يهتدون إلى العلة والمعلول إلا بعد أن تبلغ الروح الحلقوم، فيجربون مرة دواء ومرة أخرى غيره».

ثم لخص هذا الرأي في قوله: غير أن الطبيب رسول عزرائيل منعني من الحركةّ فما أظن أن الهجاء الشديد يعدل قول الشدياق: رسول عزرائيلّ!

هل كان الشدياق رؤوفاً بأصحاب الجنس الأنيس الذي يكاد لمس الحرير يدمي بنانه؟ أراد أن يظهر طبيعة من طبائع النساء، ما هي هذه

الطبيعة: ولعهنّ بالثناء والمديح، فهو يعرف أنهنّ يجهلن القراءة، وعلى الرغم من هذا الجهل قال فيهنّ:

«لا شيء يصعب على فهمهنّ مما يؤول إلى ذكر الوصال والحب والغرام فهن يستوعبنه ويتلقفنه من دون تلعثم ولا قصور ولا ترح. وحسبي أن يبلغ مسامعهن قول القائل: إن فلاناً قد ألف في النساء كتاباً فضلهن به على سائر المخلوقات فقال: إنهن زخرف الكون ونعيم الدنيا وزهاها، وغبطة الحياة ومناها، وسرور النفس ومشتهاها.. فإذا قدر الله بلوغ هذا الخبر المطرب سماع إحدى سيداتي هؤلاء الجميلات، وسرت به وفرحت ورقصت ومرحت، رجوت منها وأنا باسط يد الضراعة أن تبلغه أيضاً مسامع جارتها وأملت من هذه أيضاً أن تطالع به صاحبتها، حتى لا يمضي أسبوع واحد إلا ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينة كلها».

بعد أن فرغ الشدياق من تتبع طبقات المجتمع كلها ومن التنديد بعيوبهم التفت إلى بعض مخاطباتهم وعاداتهم ومعتقداتهم ومعاملاتهم فنقدها كلها بشيء من السخرية جرياً على عادته.

أما المخاطبات فقد كان مرة يقابل بين اختصار الإنكليز للكلام مع المخاطب وبين إسهابنا وغلوّنا فقال:

«فإذا احتاج الصغير إلى الكبير في شيء قال له: إني أرجو أن تكون من المحسنين إليّ بتنويل طلبتي فأكون لك من الشاكرين. فهذا يُغني عن قولنا يا بدر الكمال ويا بحر النوال! يا من يلتجيء إليه العافون، ويحج إلى كعبة فضله العائدون ويا من صيته طار في الآفاق وملأ الألسن والأوراق، ويا من .. ويا من!".

فهذا يشبه سخريته من غلو الشعراء ومن ميل الكتاب إلى البديع والمحسنات اللفظية.

هذا من ناحية المخاطبات، وأما من ناحية السخرية من بعض العادات فمن جملة هذه العادات آداب الناس في الأكل، فقد راقب الشدياق هؤلاء الناس في آداب أكلهم، ماذا رأى؟:

«وقد أعرف كثيراً من أبناء جنسي الذين عاشروا الإفرنج لم تسترق طبائعهم منهم إلا الرذائل دون الفضائل، فصار أحدهم لا يقوم عن المائدة إلا وقد مسح الصفحة التي أكل منها مسحاً لا تحتاج معه إلى غسل».

أفنجد لفظاً أبلغ من المسح في مثل هذا المقام وهو اللفظ الذي عاش في لغة العامة حتى يومنا هذا، فكانت له هذه القوة في السخرية.

لم يراقب الشدياق الناس في آداب الأكل وحدها ولكنه راقبهم في آداب المآدب نفسها، كان ينقد مرة عادات الإنكليز في مآدبهم ففطن إلى عاداتنا فقال:

«وكما أن أدب الأدب عندنا أن يغصب ضيفه على الأكل ويحلفه برأسه ولحيته وشواربه أن يأكل فخذ دجاجة أو ست كبيبات أو يلقمه إياها في فمه، كذلك كان أدب الأديب عندهم أن يراعي حركات فم الآكل ويديه..».

ما أظن أن كاتباً ساخراً يستطيع أن يعرض علينا صورة أسخر من هذه الصورة.

انتهى الشدياق من نقد العادات في الأكل والمآدب فتصدى لنقد العادات في الزيارات فقال:

«فإن عادة المزور أن يحلف الزائر باسم الله وأسماء ملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالبعث أن يأكل أو يشرب شيئاً على اسمه».

وكما سخر من عادات الأكل والزيارة فقد سخر من عادات السلام

والتحية ولكن السخرية أنزلت هذه المرة على أهل مصر خاصتهم وعامتهم.

وأخيراً.. إذا لم يجد الشدياق أحداً يسخر منه سخر من نفسه، قال في مقدمة فصل عنوانه: الثلج:

«لا غرو أن يجد بعض القارئين كلامي في هذا الفصل بارداًلأني كتبته في يوم عبوس قمطرير، ذي زمهرير!»